

المشكلة الجزئية الثانية : في الشعور واللاشعور
العنصر : أساس (مبدأ) الحياة النفسية
السؤال : هل الشعور هو أساس الحياة النفسية ؟

المقدمة : يهتم علم النفس بدراسة مختلف الظواهر النفسية الصادرة عن الإنسان من ذاكرة و تخيل و عواطف و رغبات و ميول و هي أحوال باطنية و ذاتية لا يمكن التعرف عليها و إدراكتها إلا بواسطة الشعور و هو إدراك الشخص لأحواله و أفعاله إدراكاً مباشراً غير أن هناك أحوال نفسية باطنية أخرى لا ندرك حقيقتها و لا نشاطها و التي لها تأثير عميق على سلوكنا و هي تشكل ما يعرف باللاشعور و نعني به مجموعة الأحوال النفسية الباطنية التي تؤثر في سلوك الفرد و تفكيره و في مشاعره دون أن يشعر بها ، غير أن **البحث في أساس الحياة النفسية** كان من بين المشكلات الفلسفية التي شغلت اهتمام العديد من المفكرين و الفلاسفة و العلماء نتج بشأنها اختلاف في المواقف و تباين في التصورات ، إذ يعتقد البعض منهم بأن الحياة النفسية في حقيقتها هي حياة شعورية ، بينما يشكك آخرون في هذا الطرح و يقررون بوجود حوادث نفسية لا واعية تفلت من قبضة الشعور ، و في ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : **هل الحوادث النفسية حوادث شعورية في مجلتها أم هناك حوادث لا شعورية ؟** وبعبارة أخرى هل يرجع ما نقوم به من سلوكيات و ما نعيشه من أحوال نفسية إلى الشعور أم أن لللاشعور أثر في الحياة النفسية ؟

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى أنصار النظرية العقلية (**الكلاسيكية**) و في مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت بأن الشعور هو المبدأ الوحد في الحياة النفسية فالحياة النفسية و الحياة الشعورية في رأيه متطابقان متزامنان تجمعهما علاقة تماهي فكل ما هو نفسي شعوري بالضرورة فالشعور بذلك لا يفارق النشاطات النفسية بل يلازمها و يصاحبها من بدايتها إلى نهايتها

و يستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : إن **ديكارت** يتصور في الإنسان ثانية تتمثل في وجود الجسم أي البدن و هو كيان مركب و ممتد و الروح أي النفس و هي جوهر بسيط مفكر واعي غير قابل للتحلل فإذا كان من غير المعقول تصور جسم بدون امتداد

فإنه من غير المعقول أيضاً تصور نفس بدون تفكير و إن كان الامتداد يلزمه الجسم دوماً فإن الشعور يلزمه النفس دوماً فالنفس بذلك تعي وجودها أو تشعر بكل أحوالها النفسية فلا شيء يحدث فيها دون أن تعيه لأنها تفكر دوماً و لا تقطع عن التفكير إلا إذا انعدم وجودها يقول ديكارت : ((متى انقطعت عن التفكير انقطعت عن الوجود)) و مadam أن النفس تشعر بوجودها فإن الشعور لا يفارقها بل هو أساس وجودها يقول ديكارت : ((ان النفس أي الروح تستطيع تأمل أفكارها و المثابرة في تفكيرها و الشعور بكل واحدة منها)) أما الحوادث اللاشعورية فهي تتمثل في بعض النشاطات الفيزيولوجية الآلية التي تحدث دونوعي منا كأنقسام الخلايا حيث يقول ديكارت : ((لقد ثبت عددي هذه الآلة أعني نفسى التي بها أكون أنا تتميز عن جسمى تميزاً تماماً هي قادرة على أن تكون أو توجد بذاته))

الحججة الثانية : كما أن الحياة النفسية هي من البداية إلى النهاية حياة شعورية فمن التناقض و غير المنطقي القول بأننا نشعر بما لا نشعر به يقول ابن سينا : ((لا يعقل تصور عقلاً لا يعقل و نفساً لا تشعر)) و التسليم بوجود حياة نفسية لا شعورية هو من باب الجمع بين نقائصين إذ لا يمكن تصور نفس لا تشعر بحكم وعي المرء بكل عملياته العقلية و النفسية لأن الشعور ديمومة فهو تيار متصل بحياة كل عملية نفسية يقول ديكارت : ((لا وجود لحياة نفسية خارج الروح إلا الحياة الفيزيولوجية))

الحججة الثالثة : ثم أنه لو كان اللاشعور موجوداً لكان قابلاً للملاحظة لكننا لا نستطيع ملاحظته داخلياً عن طريق الشعور لأننا لا نشعر به و لا ملاحظته خارجياً لأنه نفسي و ما هو نفسي هو باطنى و ذاتي و هذا يعني أن اللاشعور غير موجود النق : رغم قيمة الشعور في النشاط النفسي إلا أن ذلك لا يبرر أن هناك تماهي بين الشعور و النفس إذ أن معطيات علم النفس الحديث أكدت أن الحياة النفسية ليست مطابقة للحياة الشعورية فالنفس أوسع من الشعور الذي يعتبر جوهر ميتافيزيقي غامض و معطياته غير كافية لمعرفة ما يجري في النفس بدليل أن هناك حالات نفسية لاشعورية حيث أن الإنسان يعيش الكثير من الحالات دون أن يعرف سبباً لها فكيف تفسر الصور التي تتناول أثناء النوم (الأحلام) التي يكون الشعور فيها غائباً و القيود الاجتماعية ليس لها وجود و كيف تفسر عدم وجود أي إرادة أو أي اختيار لمواضيع أحلامنا و كيف تفسر كذلك فلتات اللسان التي تطفى على الدوام على لسان الإنسان و ما الحجج التي يمكن تقديمها ضد النسبيان حيث

تغيب علينا الذكريات التي نريد استحضارها فنجد لها غائبة بشكل ارادى إن هذه الحالات و غيرها لا يمكن التسليم أنه لا سبب لها و إلا كان ذلك إنكاراً لمبدأ

السببية و بالتالي إذا كانت غير معروفة تكون أسبابها مجهولة قد فلت من قبضة الوعي إذا فهي بذلك لا شعورية ضف إلى ذلك أن الملاحظة ليست دليلاً على وجود الأشياء حيث يمكن أن تستدل على وجود الشيء من خلال أثاره فلا أحد يستطيع ملاحظة الجاذبية أو التيار الكهربائي و رغم ذلك فأثارهما تجعلنا لا ننكر وجودهما

2 - عرض نقض الأطروحة : و على خلاف الموقف الأول يعتقد رواد مدرسة

التحليل النفسي و في مقدمتهم الطبيب و العالم النفسي النمساوي **سيغموند فرويد** بأن الشعور لا يشكل مجلماً للحياة النفسية و إنما هو في حقيقة الأمر جزء ضئيل منها و أن اللاشعور هو الجزء الأكبر في الحياة النفسية تماماً مثل كرة الثلج التي تطفو على سطح الماء فالجزء الأكبر لا يظهر منها و كذلك الأمر بالنسبة للحياة النفسية فالجزء الأكبر الذي لا يظهر هو اللاشعور و الجزء الضئيل الذي يظهر هو الشعور و في نظر فرويد أنه ليس هناك تماهي و تلازم بين النشاط النفسي و النشاط الشعوري فالحياة النفسية أعمق و أوسع من الشعور

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحجج الأولى : الذي يثبت علمية اللاشعور هو التجارب الإكلينيكية التي أثبتت وجود مكتبات هي المسؤولة عن الأمراض النفسية مثل الهستيريا ، الصراع والإضطرابات النفسية فهناك علاقة سببية بين بعض الذكريات الأليمة و الأعراض العصبية و زوال هذه الأمراض يتم بانتقال هذه الذكريات إلى ساحة الوعي أو الشعور فقد أجرى **جوزيف بروير** في نهاية القرن التاسع عشر تجربة على فتاة مصابة بالهستيريا فلاحظ أنها كانت تتمتم في حالات الغيبوبة بكلمات بدا أنها تتعلق بهموم شخصية حميمية فوضعها في حالة تنويم مغناطيسي و أعاد عليها تلك الكلمات فكررتها المريضة و كونت تخيلاً تتسم بالكافأة و بعد تردد عدد منها تحسنت و عادت إلى حالتها الطبيعية و احتفى التحسن في اليوم التالي ثم عاد فظهر بعد جلسة جديدة وواصل علاجه على هذا النحو حتى شفيت و لقد خلص بروير إلى أن المريضة لم تستطع أن تتبين الصلة بين أعراضها و بين خبرات حياتها و لكنها في حالة التنويم (اللاوعي) كشفت فوراً عن الصلة المفقودة أي أن أعراضها كانت بمثابة ذكريات من مواقف و جذانيم ماضية و عندما تتجز تلك المكتبات في الخيال (اللاوعي) تزول تلك الأعراض و هو ما يفسر

أن أعراض الهمستيريا لا تعود لأسباب عضوية وإنما هي متولدة عن أسباب نفسية

لا شعورية لا يعيها المريض

الحججة الثانية: كما أكدت تجارب التحليل النفسي العلاجية القائمة على أسلوب

التداعي الحر و التي أجرتها فرويد على مرضاه أن الكبت هو علة اللاشعور و

يحدث نتيجة تضارب رغباتين فيتم إشباع إحداهما و صد الأخرى و هو ظاهرة نفسية

لا شعورية يحدث بسبب كبت المريض للأحداث المؤلمة الحزينة أو الرغبات

المنبودة اجتماعياً أو الحوادث التي تمس الكرامة و الشرف غير أن الكبت لا يعني

اختفاء الميول المكبوبة نهائياً بل تبقى نشطة ديناميكياً و تظهر في مظاهر متعددة

منها : **الأحلام** التي تعبر عن دوافع لا شعورية ت يريد التتحقق و لكنها مكبوبة في

خيالاً اللاشعور و كل حلم يحمل دلالة تشير إلى سبب لا شعوري فال أحالم حسب

فرويد ليست تركيباً عشوائياً للصور بل هي فرصة مواتية تظهر من خلالها ميول

الأفراد و رغباتهم المكبوبة و يلتمس اللاشعور أيضاً من خلال **النسيان** فقد بينت

مدرسة التحليل النفسي أن نسيان بعض الأسماء أو الكلمات أو الأشياء له دلالة و

معنى فهو يرجع إلى دوافع و أسباب لا شعورية يولمنا تذكرها فنحاول قمعها و

كبتها في اللاشعور فحين ينسى أحدنا إسم بلد فإن نسيانه يعبر عن سبب لا شعوري

في عدم الرغبة في تذكر ذلك الإسم لما له من ذكريات آلية مثل الكيان الصهيوني

أو فرنسا مثلاً و يظهر اللاشعور أيضاً من خلال **الأغلاط اللاشعورية** و هي الأخطاء

غير المقصودة التي يقع فيها الإنسان سهواً سواء بقلمه (زلات القلم) أو بلسانه

(فلتات اللسان) و من الواقع الذي يرويها فرويد في هذا الصدد هو أنه حدث وأن

حضر إلى جلسة قضائية في المحكمة فبدلاً أن يقول رئيس المحكمة في البداية

فتحت الجلسة فقال رفعت الجلسة فدللت فلتة لسانه هذه على رغبة لا شعورية

مكبوبة و هي كراهية الحكم في تلك القضية المعروضة عليه في ذلك اليوم و

يلتمس اللاشعور أيضاً من خلال **الحيل** و هي آليات دفاعية يتخدها الآتا للدفاع عن

نفسه دون وعي و منها التعويض و مفاده أن وجود أي نقص في جانب من جوانب

شخصية الإنسان يدفعه بطريقة لاوعية إلى اتخاذ سلوك بديل لتغطية نفسه و من

الحيل اللاشعورية نجد أيضاً التبرير و هي آلية دفاعية تجعل الإنسان يبرر أفعاله

بردها إلى أسباب أخرى أو ربطها بالآخرين فمثلاً الطالب الذي يفشل في الإمتحان

عندما يسأل عن سبب فشله يبرر ذلك بصعوبة الإمتحان و عدم كفاءة أساتذته

و لا يبرر ذلك بسبب كسله

و من الحيل اللاشعورية نجد أيضا الإعلاء أو التصعيد (التسامي) فمن خلاله يقوم الآنا بتحويل الميول العدائية و الرغبات الجنسية و السمو بها في شكل أعمال مقبولة إجتماعيا فالغرائز الجنسية في نظر فرويد تتحقق في أعمال سامية كالفن و الرياضة و الأدب ... إلخ كما أن الميول العدائية تعبّر عن نفسها في شكل سامي في أن تبرر مثلا في النقد فهذه المظاهر اللاشعورية (الأحلام ، النسيان ، الأغلاط اللاشعورية ، الحيل ... إلخ) لا يمكن معرفتها بمنهج الاستبطان (التأمل الباطني) القائم على الشعور بل تستدل على وجودها من خلال أثارها على السلوك

الحجّة الثالثة : كما أثبت الطب النفسي أن الكثير من الأمراض و العقد و الإضطرابات النفسية يمكن علاجها بالرجوع إلى الخبرات و الأحداث (كالصدمات و الرغبات و الغرائز ... إلخ) المكتوبة في اللاشعور و هذا يدل على أن معطيات الشعور ناقصة و لا يمكنه أن يعطي لنا معرفة كافية لكل ما يجري في حياتنا النفسية و على هذا الأساس توصل فرويد إلى أن الحياة النفسية بنية تتشكّل من ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : **الهو** و هو مستودع الطاقات الغريزية و مجموع الدوافع الغريزية الفطرية في الإنسان و تبيّن الصلة بالناحية الجسمية البيولوجية و المتحررة كلّياً من القواعد الأخلاقية و سلطة الضمير (لا تراعي أحكام العقل و الدين) و لذلك فإنّ

الهو يعبر عن الواقع النفسي الحقيقي

المستوى الثاني : **الآنا الأعلى** و يتمثل في مجموع القيم و القواعد الأخلاقية و الدينية التي يفرضها المجتمع و يكتسبها الطفل من تربية الوالدين و التي يحل بدلاً عنها الضمير السامي كسلطة مراقبة داخلية تكبح غرائز الهو و تجبرها على التكيف مع القيم السامية و تجسد هذه السلطة في صيغتين محوريتين ((يجب أن)) و ((لا يجب أن)) و حسب فرويد تعرف الحياة النفسية صراعاً حاداً بين الهو و الآنا الأعلى أي بين قوة غريزية غير مهذبة تزيد الإشباع و بين الضمير الأخلاقي الذي يمثل سلطة رادعة تمنع من الإشباع إلا ضمن قيم و أخلاق المجتمع

المستوى الثالث : **الآنا** و يتدخل لفك الصراع و إحداث التوازن بين الهو و الآنا الأعلى بحيث يعمل على إشباع رغبات الهو مع مراعاة قيم الآنا الأعلى في نفس الوقت و يرى فرويد أن رغبات الهو التي لا تتحقق ستحال إلى اللاشعور لكنها بالمقابل لا تستسلم بل تعمل جاهدة على العودة إلى ساحة الشعور متحالية عليه في شكل أحلام و زلات قلم و فلتات لسان يعجز الشعور عن تفسيرها

النقد : لكن و رغم القيمة النظرية و العلمية لاكتشاف اللاشعور إلا أن تفسير فرويد فيه مغalaة و ذلك لأنه بالغ في تضخيم دور اللاشعور في الحياة النفسية على حساب الوعي و هذا يتناقض مع وجود الإنسان القائم على الوعي ثم إن ما يؤخذ على فرويد هو أنه اختزل الوجود الإنساني في مستوى الغرائز الجنسية لما فسر كل نشاط إنساني برده إلى الليبido و ذلك لا ينسجم مع طبيعة الإنسان العاقلة فلو كان الأمر كذلك لما تميز الإنسان عن الحيوان و لكن في مستوى البهائم ضف إلى ذلك أن فرضية اللاشعور ليست حقيقة علمية بل هي مجرد فرضية (افتراض) تفتقر لما يوكلها علمياً خاصة و أن تجارب فرويد اقتصرت على المرضى فقط دون الأسوىاء بدليل ظهور فرضيات جديدة مضادة لها من طرف تلامذته خاصة **أدلر** الذي رأى أن اللاشعور ليس مرده إلى الليبido بل هو راجع إلى الشعور بالقصور (النفس) أما **كارل يونغ** فقد عارض هو الآخر أستاذة فرويد و رأى أن النظرية الجنسية غير كافية فينبغي أن تضاف إليها الحاجة إلى السيطرة و فضلاً عن ذلك فقد بلغ الاعتراض على نظرية التحليل النفسي إلى حد أن هناك من انكر حتى وجود اللاشعور و من بينهم الفيلسوف الفرنسي **جون بول سارتر** الذي اعتبر أن السلوك الإنساني يجري دائماً في مجال الشعور و أن اللاشعور في نظره مجرد خداع و قد عبر عنه في نظريته خداع النفس

التركيب : الحقيقة أن الحياة النفسية تتأسس على ثنائية متكاملة قوامها الشعور و اللاشعور الشعور بحوادثه و أحواله التي بدونها لا يمكن للأدراك و سائر الوظائف العقلية الأخرى أن تتفاعل فيما بينها أو مع العالم الخارجي و اللاشعور بمخزونه المتنوع كرصيد ثري يمكن في آن واحد من استكشاف تاريخ الفرد و كذا تقويم سلوكه و بذلك لا يجدر بنا أن ننظر إلى الشعور على أنه ساحة صراع بين متناقضات بل بوصفه آلية للتوازن و التكيف و المعرفة و لا إلى اعتبار اللاشعور سجناً للرغبات المكبوتة التي قد تعصف بكيان الشخص و شخصيته و إنما كطافة يمكن توجيهها نحو الإبداع العلمي و الفني و عليه تظل نظرية اللاشعور إجتهاد أقرب منه إلى الافتراض الفلسفى من النظرية العلمية حتى يثبت العكس لكن يجب الإشارة دائماً إلى أن الحياة النفسية واسعة بحيث أنها تتسع للشعور و اللاشعور معاً

الرأي الشخصى : لكن حسب رأى الشخصى فإن الحياة النفسية للإنسان هي حياة شعورية بالدرجة الأولى لأنه يعيش معظم لحظات حياته واعياً و لأن من

خصائص الشعور الديمومة و الإتصال لكن هناك جانب آخر لا شعوري له دور كبير في تنفيس الرغبات المكبوتة و لكلا الجانبين دور و أهمية في الحياة النفسية لكل منا

الخاتمة (حل المشكلة) : و بناءاً على ما سبق نستنتج أن الشعور ليس هو المبدأ الوحيد الذي تقوم عليه الحياة النفسية بل هناك مبدأ آخر و هو اللاشعور لأن هناك تكامل بينهما فما يفلت من قبضة الشعور يمكن رده إلى اللاشعور الذي هو في نظر فرويد مركز الثقل في الحياة النفسية إذن فالحياة النفسية ليست كلها مبنية على الوعي و ليست كلها مبنية على اللاوعي و إنما تنطوي على وعي نسبي

dirassatidz.com

 **@dirassati1**